المدخل إلى البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل إلى البحث

الإسلام عقيدة عملية لها جوانب تطبيقية في سلوك المسلم؛ وفي خضم الواقع يجري صراع مستمر بين الدوافع والغرائز والقيم المتولدة من العقيدة؛ ولابد من غلبة جانب على الآخر، ويتم ذلك في جهاد النفس لتتسامى ولتعرج في سماء المعرفة لتملك النفس الإرادة القوية في تحقيق أوامر الله سلوكاً ووجوداً.

إنه صراع طويل ومرير بين الصدق والكذب، بين الخير والشر، بين الأثرة والإيثار؛ ومن الذي يستطيع أن يرجح الصدق والخير والإيثار ؟! الإيمان اعتقاد فكري يحتاج إلى قوة روحية ليقف أمام هذا الصراع؛ والنفس أمارة بالسوء ولابد من مجاهدتها في الله حق جهاده لتُصقل وتزكى وتطهر وتتسامى عن الضياع في أوحال النفس وأمراضها وعقابيلها.

السنة النبوية والتربية القرآنية هي الوسائل المؤدية لتزكية النفس حتى تسلك المنهج التربوي الروحي الذي يساير طبيعة الخير في النفس الإنسانية.

قامت فئة من العلماء باستنباط الوسائل التربوية القرآنية فاعتمدت على الآيات القرآنية المتناثرة في كتاب الله والسنة النبوية الطاهرة. لتحصل على طهارة النفس وصفاء القلب، وتزكية الروح.

فالعلم قدرة عقلية للفهم والإدراك، وهو بداية الطريق للسالكين إلى الله تعالى، ولا يمنع العلم من التردي في أتون الأمراض النفسية كالرياء والكبر والحقد والحسد والأثرة والانحراف.

والغزالي مثال رائع على ما نقوم به من بحث حول العلم والحاجة إلى التزكية الروحية، فعلى الرغم من كونه من أكبر علماء عصره بالعلوم الشرعية، فإنه لم يتخلص من أمراض النفس، حتى سلك درب المربين، وجاهد نفسه، وتتلمذ في مدرسة التربية الروحية القرآنية، فجمع طاقات نفسه وتزكت روحه وطهر قلبه فانكشف له نور في قلبه، ثم صقلت أعضاؤه بالأوامر واجتناب النواهي، وكشف له الحجاب فازداد يقيناً، وانتقلت المبادىء النظرية إلى سلوك عملي تربوي قرآني متكامل.

إن الدعوة إلى سبر أغوار الآيات القرآنية هي التي دعت علماء الحقيقة إلى استنباط المنهج الروحي والسلوك التربوي، وبهذا حققوا جوانب الإيمان العملي، لأن تزكية النفس هي حاجة ماسة لكل مسلم؛ بل هي ضرورة ملحة لكل مؤمن لينتصر في غمار الصراع الواقعي، وليحقق الإيمان وجوداً وحيزاً عملياً كما كان رسول الله ﷺ.

فالتربية الروحية مدرسة لها مناهجها، وأسلوبها خاص له مبرراته وأدلته. وهي المراحل التي تنقل المسلم إلى المجاهدة، فإلى الإحسان ثم إلى اليقين. فالقرآن هو الدليل الوحيد لهذا المسلك التربوي، والسيرة النبوية هي المسار الذي لابد من متابعته لإدراك هذه الحقائق فقد تشعبت الطرق وظهرت مصطلحات سميت بالتصوف، وانقسمت السبل، ودب

الانحراف في سلوك البعض، فكان حجة للمعترضين الذين تجمدت عقولهم حول ظواهر النصوص.

حاولت دراسة التربية الروحية القرآنية من أدلتها الأولى ثم التربية النبوية وأجريت حواراً بين الصوفية وخصومها للوصول إلى التربية القرآنية البعيدة عن انحراف طويل تم في أتون الشوائب التي دخلت على المجتمعات الإسلامية من جمود فقهي وتفسيرات وتخبط صوفي منحرف.

فعندما تطالع كتاب (الصوفية في نظر الإسلام) تجد أن جهالة المؤلف بالتصوف الحقيقي أو تجاهله أدى به إلى الكتابة بشكل فظ غليظ وبدون وعي للكلمة التي ينقلها. فمثلاً يهاجم العلم اللدني. وماذا يستطيع القول أمام قول الله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] فهل يدعوه الحق إلى إنكار الآية القرآنية؟!!!

فكما نشأ في علم الكلام الفلسفة والمنطق، توصل بعض الصوفيين إلى التصوف الفلسفي، ولكن أكثرهم ركّزوا على التصوف الشرعي المعتمد على الكتاب والسنة، وفهم الزهد عند الصوفية أنه بعد عن الحياة، ولكنه هو زهد قلبي ليمتلك المسلم القدرة على تسخيرها في طاعة الله فهو يملك الدنيا ولا تملكه. فأنى لحاقد جهول؛ لم يبحث عن الحقيقة، وإنما هاجم أهلها. وبقلم ينقصه التوثيق والمصادر الصحيحة، وللأسف كان اطلاعه على التصوف سطحياً ولم يتعب نفسه في مدارسة الصوفيين الشرعيين، الذين اشترطوا على كل من يريد أن يسلك طريقهم أن يتقيد بالكتاب والسنة كالمحاسبي والجنيد والغزالي والهروي.

لقد نسي المؤلف، مع مجموعة الحاقدين على التصوف، دور العلماء

---

(١) سورة الكهف: ٦٥.

الروحيين في الصمود والثبات أمام تقهقر السياسيين في خضم الصراع مع التتر والمغول والصليبيين، إنهم أمدوا المجتمع الإسلامي بالروح المتسامية التي ألهبت الجذوة الإيمانية لتحطم إرادة المستعمرين، وعلى سبيل المثال: ابن باديس في ثورة الجزائر، وعبد القادر الجزائري، وعبد الكريم الخطابي، وعمر المختار، والمهدوية وغيرهم، كل هؤلاء من علماء التربية الروحية القرآنية الذين ساهموا في إيجاد المجتمع الإسلامي الصامد بإيجاد الدعاة الذين جمعوا الشريعة مع الحقيقة.

وما أروع ما قاله محمد إقبال شاعر الإسلام ومؤسس دولة باكستان: (إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعاً من الجمال والكمال، والإنسانية العالية، والأخوة العالمية لا نجده في إسلام الفقهاء والمتكلمين).

ولا ننسى إزاء هذا الواقع انحراف بعض الصوفيين عن الحقائق؛ ولكن انحراف الفقهاء لا يدعونا لترك الفقه، وانحراف المفسرين لا يصح أن يكون سبباً في الإعراض عن التفسير؛ وكذلك علماء التربية الروحية الذين سمّوا بالصوفيين. فانحراف بعضهم ليس سبباً جوهرياً في ترك التربية الروحية القرآنية، وقد دعا أحد علماء الإسلام في بلاد الشام إلى ترك المصطلحات كالصوفية والطريق وغيرها، والعودة إلى مصطلحات القرآن وهي التزكية؛ والإحسان؛ والإخلاص؛ ولابد لنا من مناقشة كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: (من الصوفيين صديقوا هذه الأمة ؟) ثم يؤكد (إنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل. . .) يا لها من كلمة طيبة فيها إنصاف وعدالة لهذه الفئة من المؤمنين!

وفي هذا البحث الذي بين أيديكم، حوار مفتوح لبيان أهمية التربية الروحية القرآنية، والخوض في الفوائد التي يمكن أن تؤخذ من السلوك

التربوي للحصول على النفس الطاهرة المتزكية.

والتصوف هو الأنشودة الروحية التي يترنم بها الإنسان في أعماقه، وكل ديانة لها صوفيتها الخاصة، وذلك لأن الدين هو المفهوم الروحي للإنسان، ولكل دين مفهوم خاص للتربية الروحية؛ ولذا ألبست كل ديانة الصوفية بلباسها. والتصوف الإسلامي له لباس خاص يتميز بتقيده بالكتاب والسنة وما شذ من شذ إلا على نفسه. ومن أجل البسطاء من العلماء، والمتعصبين من الأدعياء، والسذج من البشر نقول: عودوا إلى الحقائق القرآنية تجدوا التربية الروحية متألقة تتسامى عن كل منهج روحي يدعي البلوغ والنضوج والكمال.

والتربية الروحية مذهب عالمي يتلون في كل أمة بلون عقائدها وتفكيرها.

فأين أنتم من قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[1].

وما أروع ما قاله ألدوس هكسلي الكاتب العالمي: (إن الإنسان الذي يجعل من عقله المجرد إماماً وهادياً، مبتعداً عن منطقة الروح وإلهاماتها، هو إنسان مهما تجمل بحضارة العلم والعقل يرتع في نطاق واحد مع الحيوان البهيمي)[2].

* * *

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٥.

(٢) الإنسان ذلك المجهول.